سابعاً: تحدي الامبراطورية البيزنطية في تبوك:

أقام الرسول ﷺ في المدينة بعد عودته من حصار الطائف بضعة أشهر، قام خلالها بإرسال المصدقين إلى مختلف القبائل المسلمة لجباية الزكاة، وكان ذلك في شهر محرم من سنة تسعة للهجرة[1]. كما أرسل خلال هذه الفترة عدة سرايا بمهمات متنوعة منها سرية عيينة بن حصن إلى بني تميم، وسرية علي بن أبي طالب إلى طيء لهدم صنمهم القلس، وسرايا أخرى لتأكيد قوة الدولة العربية الإسلامية وسلطتها[2].

وفي رجب من السنة التاسعة للهجرة، بلغت المسلمين أخبار عن طريق الأنباط الذين يأتون إلى المدينة للمتاجرة بأن الروم قد جمعوا جموعًا كثيرة بالشام، وأجلبت معهم قبائل لخم وجذام وغسان وعاملة، وإن مقدماتهم قد عسكروا في البلقاء، وأنهم يريدون التوجه لمحاربة المسلمين[3]. ويبدو أن ذلك كان إشاعة لغرض بث الخوف في نفوس المسلمين كما يستنتج من قول الواقدي:: ولم يكن ذلك، إنما ذلك شيء قيل لهم فقالوه. ولم يكن عدو أخوف عند المسلمين منهم، وذلك لما عاينوا منهم "[4].

ويبدو أن الرسول ﷺ قد قرر تنظيم حملة عسكرية كبيرة والخروج بها إلى تخوم بلاد الشام لكسر حاجز الخوف الذي كان في نفوس الناس من الإمبراطورية البيزنطية، وإشعار البيزنطيين والقبائل العربية الموالية لهم أن المسلمين قادرون على محاربتهم وتحديهم في مناطق نفوذهم. وقد كان ذلك ضرورياً بعد إخفاق المسلمين في معركة مؤتة.

ومن أجل تحقيق الأهداف الآنفة الذكر، فإن الرسول ﷺ قد أعلن دون مواربة أن هدف هذه الحملة هو محاربة الروم، كما عمل على أن يحشد لها أكبر عدد من المقاتلين، فأرسل مبعوثيه إلى مكة وإلى القبائل الموالية للدولة الإسلامية للمشاركة فيها[5].

ويلاحظ أن الفصل الذي تم فيه تجهيز هذه الحملة كان الصيف. ومن ثم فقد انضم عامل الحر الشديد، إلى عامل بعد المسافة، وقوة العدو في تثبيط كثير من الناس عن المشاركة في هذه الحملة. وكان أبرز من حاول التملص من المشاركة فيها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأعراب والمنافقون، إذ أخذ المنافقون يخوفون الناس ويثبطونهم ويقولون لهم: "يغزو محمد بني الأصفر، مع جهد الحال والحر والبلد البعيد، إلى ما لا قبل له به! يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب؟" [1].

وعلى الرغم من كل ذلك نجح الرسول ﷺ بفضل إيمانه وحماسة أتباعه للقضية التي يجاهدون من أجلها أن يحشد ثلاثين ألف مقاتل ومعهم عشرة آلاف فرس للمواجهة المنتظرة مع الروم البيزنطيين[2].

لقد سار الرسول ﷺ على رأس أضخم جيش استطاع حشده حتى ذلك الوقت باتجاه الشمال في ظروف مناخية قاسية حتى نزل في تبوك، وهي منطقة في شمال شبه الجزيرة العربية وتقع ضمن دائرة نفوذ الإمبراطورية البيزنطية. وقد مكث في هذه المنطقة عشرين ليلة، وهرقل يومئذ في حمص، لم يتحرك لمهاجمة المسلمين[3].

وقد استغل الرسول ﷺ وجوده هناك، فبعث خالد بن الوليد من تبوك "في أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل – وكان أكيدر من كندة قد ملكهم، وكان نصرانياً"[4]. فتمكن خالد من أسر أكيدر، وأتى به إلى الرسول ﷺ "فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله، فرجع إلى قريته"[5].

ويبدو أن وجود الرسول ﷺ على رأس جيشه في تبوك قد أثر في نفوس أهالي المستوطنات والقرى الموجودة هناك فقرروا تقديم الولاء للدولة الإسلامية بعد أن كانوا يؤدونه للإمبراطورية البيزنطية. يقول الواقدي: "وكانت دومة وأيلة، وتيماء، قد خافوا النبي ﷺ لما رأوا العرب قد أسلمت. وقدم يحنة بن رؤبة على النبي ﷺ، وكان ملك أيلة، وأشفقوا أن يبعث إليهم رسول الله ﷺ كما بعث إلى أكيدر، وأقبل معه أهل جرباء واذرح، فأتوه فصالحهم، فقطع عليهم الجزية، جزية معلومة، وكتب لهم كتاباً"[6].

ويلاحظ أن سياسة الرسول ﷺ تجاه المسيحيين واليهود كانت قائمة على الاعتراف لهم بحق الاحتفاظ بعقيدتهم لأنهم أهل كتاب، وكان يشترط عليهم للتعبير عن ولائهم للدولة الإسلامية أن يدفع الرجال القادرون منهم مبلغاً سنوياً من المال يدعى الجزية مقابل حماية الدولة لهم وبخاصة وأنه لم يكن مفروضاً عليهم واجب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجهاد وأداء الزكاة. ومع ذلك فقد كان هذا المبلغ زهيداً جداً، فقد ذكر الواقدي أن الرسول ﷺ وضع "الجزية على أهل أيلة، ثلاثمائة دينار عن كل سنة، وكانوا ثلاثمائة رجل"[1]، أي أن الجزية التي كانت مفروضة على كل واحد منهم هي دينار واحد في السنة فقط.

عاد الرسول ﷺ إلى المدينة في شهر رمضان، بعد أن امضى بعيداً عنها حوالي الشهرين، قام خلالها بتأكيد قوة الدولة العربية الإسلامية في الشمال في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية، مما كان يعني أنه غدا سيد الجزيرة العربية من غير منازع. ويبدو أن بعض المسلمين قد استنتجوا أن عهد الجهاد قد انتهى وأنهم مقبلون على حياة يسودها الهدوء والسلام بعد أن توطدت أركان الإسلام ودولته في شبه الجزيرة العربية، فجعل المسلمون يبيعون أسلحتهم ويقولون: قد انقطع الجهاد! فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنهاهم وقال: لا تزال عصابة من أمتي يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال"[2].

لقد كانت حملة تبوك، هي أكبر وآخر حملة عسكرية يقودها الرسول ﷺ قبل وفاته[3]. وقد تفرغ بعد عودته إلى المدينة لاستقبال الوفود وإرسال البعوث وتوجيه الناس بما يساعد على نشر الإسلام في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية وتوحيد الناس في إطار دولته. بل إن جهود الرسول ﷺ لم تقف عند حدود شبه الجزيرة العربية فقط، إذ أن هنالك من الآثار ما يشير إلى أنه كان يرسل الرسائل إلى ملوك وحكام البلاد المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام. مما يدعو إلى تقديم بعض التفاصيل عنها في السطور الآتية.

ثامناً: رسائل الرسول ﷺ إلى حكام البلاد المجاورة:

تتفق المصادر التاريخية على أن الرسول ﷺ قد بدأ بعد صلح الحديبية في توجيه الرسائل إلى شيوخ القبائل العربية وحكام البلاد المجاورة يدعوهم فيها إلى الدخول في الإسلام[4]. ويبدو أن ذلك كان منسجماً مع وضع الرسول ﷺ السياسي بعد أن أفلح في تحييد قريش وتفرغ لنشر الدعوة بين الناس في جزيرة العرب. كما أنه ينسجم مع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner